الجاحظ فى كتابه البخلاء

أ . د . مصطفى محمود يونس

ألف الجاحظ كثيرا من الكتب ، وخلف من بعده آثارا لا تمحى . وكان من الذخائر العربية الأصيلة « كتابه البخلاء » فقد ظل على مر الزمن يحفظ للجاحظ روحه المرحة الساخرة ، ويحمل للأجيال المتتابعة قصص البخل والبخلاء فى أسلوب ممتع رائع ، وعبارات فكهة حلوة وبيان ساحر أخاذ فهو موسوعة عامة يتناول ألوانا من طرائف القصة ويتحدث عن أعلام كثيرة مشهورة يصور حالاتهم المختلفة موردا طرائف مشاهيرهم ، متندرا بملح البخلاء من العلماء والأدباء ، مثبتا ما يلحق ذلك من مناظرات بين الكرم والبخل وغير ذلك من الفوائد عن آداب العرب وعاداتهم فى مآدب الضيافة .

لعل كثيرا من الناس يتساءلون : لم ألف الجاحظ كتاب البخلاء وما الدوافع التى دفعته الى ذلك الموضوع يتخذ منه مادة للدراسة أو مجالا للتسلية . والباحث الذى يتعرض للاجابة عن هذه الأسئلة يرى أكثر من دافع دفعت بالجاحظ الى هذا الحديث حتى ألف كتابا خاصا فى سيرة البخلاء .

وأول هذه الدوافع أن الجاحظ نشأ فى البصرة ثم عاد اليها فى أيامه الأخيرة فقد شهدت صباه وشيخوخته أو تفتحت فيها براعمه ثم جفت بها أوراق حياته ومعنى ذلك أنه أشرب روحها ووعت عيناه منها على ما لم تقع عليه فى مدينة أخرى ، وتأثر بها كما لم يتأثر فى مجال آخر

والبصرة فى كل عهد من العهود التى شهدها الجاحظ مدينة تجـــارية بحرية كبيرة ومن شأن حياة المدن المشتغلة بالتجارة والمـال أن تفسـد فيها بعض القيم الخلقية والروحية • ثم هى مجتمع لكثير من أصحاب الآراء والمذاهب والنحل ومن بينهم الشعوبيون الذى حاولوا أن يغضوا من مثل العربى وقيمه ولا سيما الكرم ونتيجة لهذا وذاك أصبح البخل ـــ مجتمع البصرة ـــ مذهبا يعتقد وفلسفة يدافع عنها بعض النـــاس وكان لا بد للجاحظ ـــ وهو عربى الروح والدم واللسان ـــ أن يسـخر من هذا المذهب ودعاته وأن يعرض له ولهم فى تهكم ونقد مريرين فكان كتاب البخلاء تحفة رائعة يفضح طباع البخلاء ويكشف أفعالهم ويسخر من تصرفاتهم ويتندر بها وبذلك ينتصر للعرب ويدافع عن طبـاعهم ، ويعتز بأخلاقهم وكرمهم •

ثم هناك دافع سياسى دفع الجاحظ كما دفع غيره الى تأليف مثل هذه الكتب تأكيدا لسلطة العباسيين وكشـفا عن مثالب الأمويين حتى تخلص الدولة من هذه الأشباح التى كانت تتخايل لها ، والدولة العباسية فى ذلك الوقت كانت تحس الحاجة الشديدة الى التمكين لنفسـها ببث الدعوة ضـد هؤلاء الذين كانوا ما يزالون يمثلون فى كثير من الأذهان طائفة من المزايا والفضائل لا بد من محاولة محقها باصـطناع ضروب مختلفة من الدعاية الى جانب ما كانت تصـطنعه من أخـذ الأمويين وأنصارهم بالقوة وتحريم الاشادة بذكرهم • فكان من مظاهر هـذا الموقف الذى اتخذته ضد الأمويين أن توحى الى العلماء والكتاب بكتابة الكتب واذاعة الرسائل اشادة بمآثر الدولة القائمة وتمجيد العباس بن عبد المطلب وتفضيل هاشم على عبد شمس الى غير ذلك من الموضوعات التى تحقق ذلك الغرض من التماس شنع الأمويين وتصنيف الكتب فيها وطبعى أن يكون لرواة الأخبار نصيبهم الموفور من هذه السياسة وكذلك

جعلوا يتلقفون أخبار الشنع ما وجدوها يضعونها ويتزيدون فيها على خلفاء بنى أمية وعمالهم وسراتهم ولعل فى هذا الخبر الذى يحكيه الطبرى ما يؤدى الينا صورة من هذا الذى نقرره اذ يقول :

« وذكر محمد بن عمر عن حفص مولى مزينة عن أبيه قال : كان هشام الكلبى صديقا لى فكنا نتلاقى فنتحدث ونتناشد فكنت أراه فى حال رثه وفى أخلاق على بغلة هزيلة والضر فيه بين وعلى بغلته فما راعنى الا وقد لقينى يوما على بغلة شقراء من بغال الخلافة وسرج ولجام من سروج الخلافة ولجمها فى ثياب جدد ورائحة طيبة فأظهرت السرور ثم قلت له : أرى نعمة ظاهرة ، قال لى : نعم أخبرك عنها فاكتم ، بينا أنا فى منزلى منذ أيام بين الظهر والعصر اد أتانى رسول المهدى فسرت اليه ودخلت عليه وهو جالس خال ليس عنده أحد وبين يديه كتاب فقال . ادن يا هشام فدنوت فجلست بين يديه فقال : خذ هذا الكتاب فاقرأه ولا يمنعك ما فيه مما تستفظعه أن تقرأه قال : فنظرت فى الكتاب فلما قرأت بعضه استفظعته فألقيته من يدى ولعنت كاتبه فقال لى : قد قلت لك ان استفظعته فلا تلقه ، اقرأه بحقى عليك حتى تأتى على آخره قال : فقرأته . فاذا كتاب قد ثلبه فيه كاتبه ثلبا عجيبا . فلم يبق له فيه شيئا فقلت : يا أمير المؤمنين من هذا الملعون الكذاب ؟ قال هذا صاحب الأندلس قال : قلت فالثلب — والله — يا أمير المؤمنين فيه وفى آبائه وأمهاته ثم اندرأت أذكر مثالبهم قال فسر بذلك وقال : أقسمت عليك لما أطلت مثالبهم كلها على كاتب قال : ودعا بكاتب من كتاب السر فجلس ناحية وأمرنى فصرت اليه فصدر الكاتب من المهدى جوابا وأملت عليه مثالبهم فأكثرت فلم أبق شيئا حتى فرغت من الكتاب ثم عرضته عليه

فأظهر السرور ثم لم أبرح حتى أمر بالكتاب فختم وجعل فى خريطة ودفع الى صاحب البريد وأمر بتعجيله الى الأندلس • قال : ثم دعا بمنديل فيه عشرة أثواب من جياد الثياب وعشرة آلاف درهم وهذه البغلة بسرجها فأعطانى ذلك وقال لى : أكتم ما سمعت •

ان قصة كهذه تشير الى مبلغ الخصومة التى كانت قائمة بين العباسيين والأمويين والتى استخدم لها العلماء والكتاب من كل جانب يتبادلون الشنع ويتقاذفون المثالب •

ولعل من أقرب الشتم تأثيرا فى نفوس الجماهير ما يتعلق منها بالمطاعم بين الشره الذى تتقزز منه الحضارة والبخل الذى تنفر منه الانسانية وهما يتجاوران كثيرا فى حديث البخلاء •

ولقد كانت حياة كثير من خلفاء بنى أمية مليئة بمظاهر البخل ، وسيرهم مقرونة بتصرفات كثيرة شاذة يمكن أن تكون مادة وافرة لأحاديث البخل والبخلاء • فهم يذكرون أن معاوية كان نهما شحيحا على الطعام ويقولون : ان عبد الملك بن مروان : كان يلقب برشح الحجر ولبن الطير لبخله • ويتحدثون عن سليمان بن عبد الملك أنه كان نهما قذر الأكل ويذكرون هشام بن عبد الملك فيقولون انه كان بخيلا شديد البخل •

وهكذا أغرت حياة هؤلاء الخلفاء كثيرا من الكتاب أن يأخذوا منها مادة دسمة يرسون بها قواعد الحكم فى دولة بنى العباس،ويزيلون بها الآثار التى كانت ترتسم فى أذهان كثير من الناس لخلفاء بنى أمية •

وكذلك التفت الجاحظ الى موضوع البخلاء وفيه نزعته الأدبية الجياشة القوية العنس السريعة الاستجابة التى يمتاز بها والتى كانت

تطبع شخصيته بطابعها فاندفع الى تأليفه كتاب « البخـــلاء » بروحه التى ملكت عليه نفسه ، وطبيعته التى ارتسمت بها شـــخصيته فجاء كتاب البخلاء تعبيرا عن نفسية الجاحظ الساخرة ، وانطلاقا من اتجاهاته المختلفة ، وتأكيدا لروحه الأدبية الخالصة التى تتـــزع الى ربط الأدب بالفن وتصوير الحياة الواقعية تصويرا أدبيا رائعا ، فهى حافزته اليه ، وباعثته فيه ، وصاحبة الأمر فى تصريفه وتلوينه .

وحين نتحدث عن الدوافع التى دفعت بالجاحظ الى تأليفه كتـــاب البخلاء فلسنا نتجاهل الحياة الاجتماعية من حوله وما كان لها من تأثير بالغ فيه حتى طبعت كتاب البخلاء بطابعها ، ذلك أن الحياة الاجتماعيةمن حوله كانت معقدة أيما تعقيد ، مشتبكة النواحى والجوانب ، بعيـــدة غاية البعد عن السهولة التى كان يتميز بها المجتمع الاسلامى .

وبذلك صار المـــال ميزان الرجال وأصبح من الأمثلة الجـــارية فى مدينة كبغداد مثلا : المـــال المال وما سواد محال بل اننا نرى أبا نواس يصور المثل المشهود فى عصره فيقول :

سابقى الغنى : أما جليس خليقة نقوم سواد أو نخيف سبيل

وأخذ الناس يتكالبون على المـــال يتوسلون اليه بشتى الوسائل لا يقفون عن محرم ولا يتورعون عن خبيث ولا يعبأون أن يتخـــذوا من المعانى الكريمة أسبابا يخادعون بها حرصا عليه واجلالا له حتىأصبحت مظاهر الدين شركا من شراكه والى هذا يشير ابن المبارك فى شـــعر له يدفع به الزهاد عن الاقامة فى بغداد فيقول :

ان بغداد للملوك محل ومناخ للقارىء الصـــياد

ولما ولى معاذ بن معاذ قضاء البصرة كتب اليه أبان اللاحقى :

يا معاذ بن معا ذ الخير يا خير حكيم
قد تهيأ اللاحقيـ ـون وأصناف تميم
لزموا مسجدنا فى ضيقه أى لزوم
شمروا القمص وحكوا موضع السجد بثوم
كلهم يأمل أن تو دعه مال يتيم
فاتق الله فقد أصـ بحت فى أمر عظيم

الى كثير غير ذلك مما يشير الى أى حد عظمت مكانة المال وفتنته حتى اتخذت تلك المعانى التى كان الأصل فيها العزوف عن الدنيا والبعد عن زخارفها وسيلة للمخادعة عليها •

وهناك ظاهرة اجتماعية متصلة بهذه الحالة أشد الاتصال بل تعد فى حقيقة الأمر من أول العوامل المؤثرة فى قيامها • وهى نشوء طبقة التجار الأثرياء فى البصرة وبغداد وهى الطبقة التى تقابل الطبقة البورجوازية فى الغرب وكانت تلك الطبقة فى البصرة أعظم اذ كانت ثغر العراق والمركز التجارى الخطير الذى يصل الشرق والغرب والذى يستقبل متاجر الهند وجزر البحار الشرقية وهذه الطبقة هى بطبيعتها أكثر الناس تقديرا للمال وأشدهم مغالاة به وحرصا عليه مع اختلاف أفرادها فى هذا وفى تقرير هذه الصفة الغالبة عليهم •

يقول الثعالبى : « ومعلوم أن البخل والنظر فى الطفيف مقرون بالتجارة والتجار هم أصاحب التربيع والتكسب والتوفيق والناظر فى كتاب البخلاء يرى أن معظم الشخصيات التى رسمها الجاحظ فيه هم من هذه الطبقة حتى ليمكن القول بأنه يعد من أحد جوانبه تصويرا

لها ، ووصفا لبعض ألوان حياتها . ولا ريب ان لنشأة الجاحظ فى البصرة حيث تكثر هذه الطبقة وتحتل فيها مكانا ظاهرا واتصاله على نحو ما ببيئاتها مما كان له أثره فى اتجاهه الى تصويرها وفى هذه النظرة المتعلغلة التى استطاع أن يكشف بها كثيرا من خفياتها ودقائقها وأن يعبر تعبيرا دقيقا واضحا عما يخالجها من مشاعر قلقه مضطربة بين المال وايثاره والحرص عليه والمغالاة به وبين هذه الحياة المترفة التى اصطنعوها وما تلزم به أهلها وتأخذ من أصحابها .

واذا كانت هذه الدوافع مجتمعة وهذه الأسباب متكاملة هى التى دفعت بالجاحظ الى أن يكتب هذا الكتاب ، ويتجه هذا الاتجاه فهل يا ترى كان الجاحظ فريدا فى هذا الكتاب أو بمعنى آخر ، ألم يسبقه أحد من الكتاب الى حديث البخل والبخلاء ؟ اننا نظلم الأدباء اذا قلنا ذلك ونغمطهم حقهم اذا زعمنا أن الجاحظ ابتكر هدا النوع ابتكارا ، ولم يتقدمه أحد من الكتاب فى هذا الباب ، فمن المسلم به أن بعض الأدباء قد اتجه هذا الاتجاه قبل الجاحظ ومنهم الأصمعى وأبو الحسن المدائنى وأبو عبيدة .

ولكن الانصاف يقتضى أن نفرق بين أحاديث البخل والبخلاء التى جاءت أخبارها على لسان هؤلاء الأدباء وبين أحاديث البخل والبخلاء كما أوردها الجاحظ فى كتابه ، كما أن الانصاف يقتضي أن نفرق بين الدوافع التى دفعت هؤلاء الكتاب السابقين الى كتابتهم عن البخل والبخلاء وبين الدوافع التى دفعت الجاحظ الى هذا اللون من الكتابة .

والباحث المحقق يرى أن أحاديث البخل وأخبار البخلاء التى جرت

على يد الكتـــاب قبل الجاحظ تسير فى طريقين وتتجه الى غايتين فى أحد الطريقين يقوم دعاة الشعوبية فيردون على الشعوب فخـــرهم التقليدي بالكرم ويقولون ان أكثر هذا الفخر كلام لا يفى به الفعل ونوع من النفج لا حقيقة له فى الواقع فهذا نوع من حديث البخل وجهتـــه هذه الوجهة ولونته هذا اللون تلك الخصومة الجنســية التي ثارت بين الروح العربية والروح الشعوبية كما وجهت أنواعا أخري مختلفـــة من الأحاديث وخلقت ضروبا أخرى من الكتب والتآليف .

وفى الطريق الأخرى يقوم دعاة الدولة القائمةومن وضعوا أنفسهم فى خدمة السلطان ومسايرته فى سبيله من العلماء وأهل الأدب وهـــؤلاء من ينصر الدعوة العربية ويتعصب لها كالأصمعى ومنهم من هو أميـــل الى الشعوبية كالمدائنى ولبست الدعوة للدولة بعيدة عن الدعوة للشعوبية فبينهما وشائج واصلة وان كانت قد اتخذت لونا خاصا بها .

واذن فقد كان الدافع الى الكتابة عن البخلاء لدى هؤلاء الكتـــاب لا يخـــرج عن هذين السبيلين : الخصـــومة العنصرية التى أذكتهـــا الشعوبية ، والخصومة الحزبية التى أثارتها الدولة العباسية .

ولئن استفاد الجاحظ من ذلك الجو الى حد بعيد ، وتأثر به الى درجة كبيرة فان ذلك وحده لم يكن الدافع الوحيد الى كتابه البخلاء . وانما كانت كتابته بدافع الاستجابة لنزعته الفنية وروحه الأصـــيلة وطبيعته الأدبية الخالصة .

ومن هنا كان الفرق الواضح بين أحاديث البخل والبخـــلاء التى ذكرها الكتاب السابقون فقد جاءت اخبارية بحتة تعـــرض صـــورا من

الحياة الماضية دون الحياة الحاضرة وبين ما كتب الجاحظ عن البخلاء فقد ارتفع بكتابته عن الأسلوب الاخبارى الى الأسلوب الفنى ، وذلك قزع آخر هو قزع النفس الفنية الشاعرة اذ أخذ الجاحظ هذا الموضوع الذى كان أكبر مثارة الشهوات السياسية والعنصرية والذي كان جديرا أن يثير عوامل المشاقة والمخاصمة فجعله موضوعا أدبيا خالصا ومتعة فنية رائعة وكان رهينا بالأغراض الموقوتة التى أثير من أجلها مضار خالدا خلود النفس الانسانية يمتح منها ويصدر عنها ولها .

ولعل ذلك يسوقنا الى توضيح المنهج الذى انتهجه الجاحظ فى تأليف كتاب البخلاء ، وبيان الصورة التى أملى بها أبوابه ، وسجل بها رواياته .

وأول ما يتبادر الى ذهن الباحث أن يتساءل : هل كان للجاحظ منهج خاص فى تأليف « البخلاء » يتباين مع منهجه فى الكتابة ، ويختلف مع طبيعته فى التأليف .

وبمعنى آخر لقد كان للجاحظ خصائص معينة تتميز بها كتابته ، وتتضح بها طريقة تأليفه فالى أى مدى تجلت فى كتاب البخلاء هذه الخصائص ، واتضحت هذه السمات ؟ ان الدارس لكتاب البخلاء يرى صورة حية لأدب الجاحظ .

ومثال واضح لمنهجه فى الكتابة والتأليف ، بل ان كل قطعة فيه تعد شاهدا قويا لا يحتمل الجدل على طبع الكتاب بطابع الجاحظ وتأثره بشخصيته والتزامه بالمنهج الذى انتهجه لنفسه فى الكتابة والتأليف . ولعل أول ما نتعرض له من خصائص هذا المنهج ما امتاز به الجاحظ من

البراعة فى الوصف والدقة فى التصوير وليس هناك خلاف على أن الجاحظ كان من أقدر الكتاب على الوصف والتصوير فهو منذ طفولته كان قوى التصوير دقيق الملاحظـــة له قدرة رائعة على تسجيل الحقـائق بدقة وبراعة فائقة يدل على ذلك دلالة واضحة ما سرده عن زميل له من أبناء العقابية الذين اتصلوا به فى أيام « الكتاب » فلم يفت خياله أن يسجلها بجميع تفصيلاتها ودقائقها حتى أتاح له أن يقدم منها صورة حية واضحة تشهد له بهذه الموهبة التى وهبها منذ كان صغيرا وظل متمتعا بها حياته كلها وكان خياله من أخصب الأخيلة وأقدرها على امداده بالتفصـيلات الدقيقة والملاحظات الصغيرة مما تكمل الصورة وتستتم بها وسائلها الى الحيـــاة الفنية النابضة التى تستثير الاعجاب والافتنـــان من قرارة النفس الانسانية •

ويمكن أن نرى أثر التصوير القوى والملاحظة الدقيقـة والخيال الخصب والتفصيلات التى تحكى الصورة وتبرزها من جميـع نواحيها وتضعها أمام القارىء وقد اجتمعت لها خصائص الوضـــوح وبلاغة التعبير وقوة التأثير •

يمكن أن نرى ذلك بوضوح فى تلك القطعة التى صور بها هيئـــة على الأسوارى وهو يأكل فيقول على لسان الحارثى أحد من بنى عليهم كتابه « وكان اذا أكل ذهب عقله وجحظت عينه وسكر وسدر وانبهر وتربد وجهه وعصب ولم يسمع ولم يبصر فلما رأيت ما يعتـــريه وما يعترى الطعام منه صرت لا آذن له الا ونحن نأكل التمر والجوز والباقلا ولم يفجأنى قط وأنا آكل تمرا الا أســـتفه سفا وحساه حسوا وزدا به زدوا ولا أجده كثيرا الا تناول القطعة كجمجمة الثور ثم يأخذ بحضنيها ونعليها من الأرض ثم لا يزال ينهشها طولا وعرضا ورفعـا وخفضا حتى يأتى

عليها جميعا ثم لا يقع غضبه الا على الأنصاف والأثلاث ولم يفصل تمرة قط من تمرة وكان صاحب جمل ولم يكن يرضى بالتفاريق ولا رمى بنواة قط ولا نزع قمعا ولا نفى عنه قشرا ولا فتشه مخافة السوس والدود ثم ما رأيته قط الا وكأنه طالب ثأر وشحشحان صاحب طائلة وكأنه عاشق معتلم أو جائع مقرور » .

ان هذه الصورة الحية التى رسمها الجاحظ دون أن يغـــادر من مقوماتها شيئا لتدل على ذلك الخيال المبدع الذى استطاع أن يصورها فى دقة وروعة وأن يضعها أمام أعين القراء دقيقة الأجزاء واضحة المعالم جيدة العبارة لا تكلف فيها ولا تصنع ولا مبالغة وكان لا فـــرق بين أن يقدمها الينا فى هذه المجموعة المختارة اختيارا دقيقا والمؤلفة تأليفا بارعا من الألفاظ والكلمات وبين أن يرسمها مصور عبقرى بخطـــوط وألوان الا أنها تمتاز هنا بالتعبير عن الحركة مما لا يد للتصوير به ولا قدرة له عليـــــه .

وبذلك يمكن أن نلمس منهج الجاحظ فى الوصف ومذهبه فى التصوير فهو لا يلجأ الى تلمس التشبيهات والاستعارات يســـتعين بها فى تصوير المشهد الذى يريد أن يضعه أمام القارىء وكثيرا ما تجنح بالكتاب هذه التشبيهات والاستعارات الى صورة أخرى غير التى يريدون اقرارها فى أخيلة القراء ثم لعلهم لا يصنعون هذه الأخيلة الا أن يثيروا فيها صورا ملفقة عابثة أو يهيجوا فيها ما تهيجه الشعوذة فى النظارة .

لم يجأ الجاحظ الى ذلك فى كتابه البخلاء ولعله لم يلجأ الى ذلك المنهج فى كتاب آخر ولم يتورط فيه الا بالقدر الطبعى الذى يســـتثيره الحس استثارة طبعية لا صناعة فيها ، وتلك ســـمة أخرى من ســـمات

المنهج الذى أراده الجاحظ لنفسه فى كتاب البخلاء ، وذلك ما يسمى فى اصطلاح النقاد بالواقعية وتلك صفة غالبة على الجاحظ أعانته على أن يبلغ بأسلوبه ذلك المبلغ من دقة التصوير وروعته ، وساعده على ذلك قوة ادراكه لقيم الكلمات واحساسه المرهف بالظلال التى تنتشر عنها وهدايته البالغة فى كيفية تآليفها وتنسيقها ومزج ما بينها حتى تؤدى الأغراض التى بينها وتبرز الصور التى يتصورها .

ان الجاحظ فى كتابه البخلاء لم يسلك سبيل المغالاة فى الوصف ، والمبالغة فى الخيال الى الحد الذى يخرج به عن طوق المألوف ويبعده عن دنيا الواقع ، وانما حاول جاهدا أن يستخدم وسائله المختلفة فى ابراز الصورة حية نابضة تملك على القارىء نفسه واحساسه دون أن يستشعر شيئا من الكلفة ، أو يحس لونا من النفور والاستهجان .

ولم يكن منهج الجاحظ فى كتابه « البخلاء » مقصورا على الوصف الحسي فحسب دون أن يغوص فى أعماق النفس ، ويستشف حركات الباطن ، بل لقد اهتم الجاحظ بالوصف النفسى كما اهتم بالوصف الحسى ، فهو يحاول استشفاف الحركات النفسية المختلفة التى تلابس البخل ، ويكشف المحاولات الباطنة التى يحاولها البخلاء لاخفائه وستره مرة ، ولتبريره والدفاع عنه مرة أخرى ، وهو مولع بهذا النوع من البحث والتتبع للحالات النفسية الخفية وتبين الحركات الشعورية المختلفة وملاحظة الصلة بينها وبين الحركات والسمات الظاهرة من كلمة عابرة أو اشارة طائرة أو لفتة سريعة معجلة ولا ريب أن ما أتيح للجاحظ فى حياته الطويلة الحافلة من صلة بالمجتمع وثيقة ومداخلة للناس دائمة الى جانب ما عنده من قوة الملاحظة ودقة الحكم كان مما مكن له من هذه الناحية تمكينا كبيرا ووجه فنه اليها هذا التوجيه الخصب .

وحين نتحدث عن الصفات الفنية أو عن أبرز هذه الصفات الفنية التى اشتمل عليها منهج الجاحظ فى كتابه « البخلاء » فليس من المستطاع أن نغفل صفة فنية برزت فى وضوح وبيان ، وتلك هى «السخرية» التى تعد من أبرز الصفات التى يمتاز بها الجاحظ فى كتابته حين يأخـــذ فى النقد والتصوير بل لعلها من أكثرها شيوعا فى آثاره المختلفة حتى ما يكاد القارىء المتمرس به يبرى قطعة من قطعه الفنية من أن تكون مشـــوبة بروح السخرية أما فى كتاب البخلاء خاصة فالأمر أظهر من أن يكون موضع مجاراة ، فروح السخرية سارية فى كل جزء من أجزائه قد فرقه فى كل صورة من صوره .

ولعل الأصل فى ذلك يرجع الى طبيعة الجاحظ ومزاجه فهو رجـــل مرح النفس متهلل الخاطر منطلق الوجه نزاع الى الضحك .

ومن ذلك ما نجده لديه من الدعوة الى الضحك والمزاح والفـــكاهة والدفاع عنها ورد ما يعترض به عليها .

نرى صورة بينة من ذلك فى مقدمة البخلاء وندرك ذلك واضحا فى الفصل الطويل القيم الذى تحدث فيه عن المزاح وعرض لوجوه النظر المختلفة فيه فى رسالة التربيع والتدوير ، وهو يرى أن الميل الى المزاح والتقبل له انما يكون من سهولة الخلق وسعة الأفق اذ يقول فى موضع آخر من هذه الرسالة : « من يغضب من المزاح الا كز الخلق ومن رغب عن المفاكهة الا ضيق الفطنة» كما كان يحكى عن نفسه كيف كان يسترسل فى الضحك ويغرق فيه .

ومن هنا يمكن أن نقول : ان ميل الجاحظ الى السخرية وما اليها انما جاء عن هذه الطبيعة المرحة المنبسطة الضاحكة ثم انه كان الى جوار

هذا رجلا سهل الجانب لين الحاشية محبا للناس عطوفا عليهم لا يضيق بهم ولا يتبرم بعيوبهم ولا يتسخط عليها وانما هم فى مختلف أشكالهم وشتى مسالكهم صورة من هذه الحياة التى يحبها وأمثلة من الانسانية التى يقدرها ويعطف عليها •

ومن هنا سلكت نفسه فى نقدهم مسلك السخرية اللطيفة التى تشير الى مواطن العيوب وتصورها فى جو مرح تتخلله بسمات الاستحسان وتغمره ضحكات السرور فالجاحظ نقادة بطبيعته ولكن لين جانبه وحبه للحياة نكبا به كثيرا عن طريق الجد الصارم فى النقد وما يكون فى هـذا الطريق كثيرا من الغضب والتسخط والبغضاء وما اليها من المعـانى المباينة للحب المزورة عن سبيل الحياة وله فى هذا كلمة دقيقة لعل فيها بيانا لتلك الطبيعة وتفسيرا لذلك المذهب وهى قوله : « الجـد مبغضة والمزح محبة » •

وجملة القول أن قوة حيوير الجاحظ هذه تعد من أول العوامل فى هذه النزعة الساخرة العابثة التى برز أثرها واضحا فى كتابه «البخلاء» اذ تكاد كل قطعة من قطعه ، وكل صفحة من صفحاته تجلو لنا صـورة كاريكاتورية رائعة لا نقضى منها عجبا ، وتبين لنا الى أى حد كانت هذه الروح عنده والى أى مدى اجتمعت أدواتها لديه وبأى براعة ومقـدرة أمتلك ناحية هذا النوع من التصوير الذى ينقد ويضحك فى وقت معا •

تلك أهم السمات التى اتسم بها منهج الجاحظ فى كتابه البخـلاء وأدق الخصائص التى تميز بها عرضه لروايات البخل والبخلاء فهل لنا أن نعرف بعد ذلك فى أى وقت وضع الجاحظ كتاب «البخلاء» •

ان هناك روايات متعددة وليس لدى الباحثين نص قاطع يمكن أن يدل على تاريخ محدد على وجه اليقين وان كان الحاجرى فى تقديمه لكتاب البخلاء يميل الى أنه كتب قبل كتاب الحيوان • ويستدل على ذلك بأن الجاحظ نفسه أشار الى كتاب البخلاء حين قدم لكتابه الحيوان فقال : وعتبنى بكتاب احتجاجات البخلاء ومناقضاتهم للسمحاء » واذن فهو سابق عليه • ثم يؤكد أن الجاحظ قد كتب كتاب البخلاء بعد اصابته بالفالج لأن الجاحظ أشار الى ذلك فى سياق قصة رجل يدعى محفوظا النقاش اذ يحكى عنه أنه قال له : « وأنت رجل قد طعنت فى السن ولم تزل تشكو من الفالج طرفا • ومعنى ذلك أن الجاحظ قد كتب البخلاء بعد أن أصيب بالفالج •

وقد عرض المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق فى بحثه عن « أبى يوسف يعقوب ابن اسحق الكندى » لتأليف الجاحظ كتابه البخلاء فى سياق مقارنة النصوص التى تعين على استخلاص تاريخ وفاة الكندى فقال : « ثم ان الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ يذكر ما ذكره عن الكندى فى كتابه الحيوان والبخلاء فى صيغة الماضى الدالة على أن الكندى كان ميتا حين كتب كتابه •

وكتاب البخلاء مؤلف على الراجح سنة ٢٥٤ وكتاب الحيوان سابق عليه فالكندى لم يكن حيا فى سنة ٢٥٤ ولا فى سنة ٢٥٣ ان صح أن الجاحظ كتب الحيوان فى هذه السنة » فعلى هذا الغرض يكون الجاحظ كتب كتابه البخلاء قبيل وفاته بأشهر معدودات •

ولكننا نلاحظ أن الجاحظ كان يعانى فى مثل هذه المدة من حياته

كثيرا من القلق والاضطراب النفسي كما كان كثير الشـــكوى من آثار المرض وأعباء الشيخوخة الواهنة .

وليس فى كتاب البخلاء أية اثارة تدل على هـــذه الحالة بل انه ليدل دلالة واضحة على حاله نفسية هادئة مطمئنة وعلى نشـــاط موفور لا يرنقه شيء مما يبعد معه أن يكون كتب فى تلك المدة . وانما الأشـــبه أن يكون كتب فى أواخر عهد ابن الزيات وأوائل اصابته بالفالج فى الوقت الذى كتب فيه رسالة الجد والهزل ويغلب على الظن أنه كتبـــه وهـــو بالبصرة .

ذلك هو أصح الأقوال فى الوقت الذى كتب الجاحظ فيه كتـــابه البخلاء فهل لنا أن نتساءل بعد ذلك عن محتويات هذا الكتاب،وما اشتمل عليه من أسلوب تأليفى ؟ .

ان الذى ينشد الاجابة عن هذا السؤال فى دقة واختصار يكفيـــه أن يقرأ ما ذكره الجاحظ نفسه فى وصف هذا المؤلف اذ يقول : « انه فى نوادر البخلاء واحتجاج الأشحاء ما يجـــوز من ذلك فى باب الهـــزل وما يجوز فى باب الجد » .

فعلى هذا بنى الكتاب كله الا ما ذيله به من حديث العرب والأعراب فهو بين أحاديث يسوقها على لسان بعض من عرفوا بالبخل من معاصريه كسهل بن هارون والحرامى والحارثى والكندى والثورى وابن أبى المؤمل وابن التوأم والأصمعى يحتجون لمذهبهم فى الاقتصاد فى النفقة والتثمير للمال أو مذهب الجمع والمنع كما يحلو للجاحظ أحيانا أن يذكره بهـــذا الوصف ويدافعون عنه ما ينبذ به فيأخذ الجاحظ فى ايراد هـــذه الحجج مذاهب مختلفة فهو يسوقها مرة مساق الجـــد والســـخرية تترقرق فى

خلالها ويعرضها أخرى فى معرض السخرية المريرة والتهوك المكشوف وهو فى ذلك كله يحكى حركاتهم النفسية حكاية دقيقة ويعرض ما تورده على خواطرهم أسبابهم المختلفة التى تحكمهم من بواطنهم عرضا رائعا وبين نوادر قصار مما يؤثر عن البخلاء ويصور بعض نواحيهم فى ضربات سريعة ولمحات خاطفة ، يتخلل بها تلك الأحاديث والرسائل التى قد تبلغ من الطول مبلغا عظيما وتمعن فى تشقيق الكلام والتحليل النفسى امعانا كبـــــيرا •

والجاحظ انما يسير بذلك على طريقته التأليفية من المراوحة بين الأحاديث الطويلة والرسائل المسهبة بالطرق القصيرة والنوادر المقتضبة ايثارا لاستهواء القراء وحرصا على استجلاب رغبتهم ودفع السـآمة والملل عنهم وقد كان من الكتاب الذين ينظرون الى القارىء ويرعـــون جانبه ويوجهون الى رضائه همهم وهو يعلم أن الرسائل الطويلة تثقـل على جمهور القراء كما يقرر ذلك اذ يقول • الا أنى لا أشك على حال أن النفوس ــ اذ كانت الى الطرائف أحسن وبالنوادر أشغف والى قصار الأحاديث أميل وبها أحب ــ أنها خليقة لاستثقال الكثير وان استحقت تلك المعانى الكثيرة وان كان ذلك الطويل أنفع وذلك الكثير أرد » •

وهكذا نجده لا يكاد ينتهى من رسالة سهل بن هارون حتى يأخـذ فى نوادر المراوزة وما يكاد يفرغ من حديث خالد بن يزيد حتى يأخذ فى حكاية بعض النـــوادر عن يحيى بن عبد الله وفلان ابن فلان وهكذا ينتهى من الكتب على هذه الخطة المرسومة • فاذا انتهى من هذا وبلغ من التصوير والتحليل غايته وحسب أنه قد أرضى بذلك رغبـــة القراء أن شهوة الناس كما يقول أخذته نزعته العربية فمال الى رواية مايتصل بهذا الباب من حديث العرب والأعراب فيقول :

« احتجنا عند التطويل وحين صار الكتاب طويلا كبيرا الى أن يكون قد دخل فيه من علم العرب وطعامهم وما يتمادحون وما يتهاجـــون به شيء وان قل ليكون الكتاب قد انتظم جمل هذا الباب ولولا أن يخرج من مقدار شهوة الناس لكان الخبر عن العرب والأعراب أكثر من جميـــع هـــذا الكتـــاب » •

وكلك يأخذ فى الكلام عن أطعمة العرب وضروبها وما تسمى به فى مناسباتها المختلفة ويصف طرفا من ألوان معيشتهم وما يلاقونه فى الخصب والجدب مستشهدا لما يقول بشواهد من مأثور الشعر والنثر ثم يعرض لمـــا تقوله الشعوبية عنهم فى الغض منهم والتشنيع عليهم فتأخـــــذه شنشنته فى الدفاع عنهم ورد ما ينسب اليهم أو توجيه القول فيه متسعا فى رواية الأشعار مما يتصل بهذا المنحى •

وبذلك ينتهى كتاب البخلاء • على أن أكثر ما فى هذا الكتاب امتاعا واستثارة للذة الأدبية وأقوى ما فيه دلالة على قوة الجاحظ الفنية هو تلك الرسائل الطويلة والأحاديث المسهبة المفتنة التى وضعها الجـــاحظ وضعا وحقق بها رسالته الفنية تحقيقا طريفا وأتاح بها للغة العـــربية هذا اللون الرائع من ألوان الأدب •